في تاريخ الأدب المصري

أيدمر المحيوى

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

١

في عصر الدولة الأيوبية ، حينما كانت مصر زعيمة العالم الإسلامى ترفرف رايتها عليه ، وتقف في وجه المغيرين من الصليبيين وتصد هجماتهم ، وتدفع عن بيت المقدس وتذود عن حياضه ، وتحمى مدنية الشرق وتحوطها بسياج من المناعة والقوة ، وحينما كانت مصر تقف أمام أوربا مجتمعة ، يريد الأوربيون أن ينالوا منها منالاً ، فتأبى مصر أن ينكسر عودها أو تلين قناتها ، في ذلك العصر المليء بأسباب القوة ، المفعم بالعظمة المصرية والمجد المصرى ، عاش الشاعر أيدمر المحيوى ، وربى في أرض مصر ، وفوق ثراها الخصب الندى ، وهو في أصله ينتسب الى الترك ، وإن كنا نجهل مايتعلق بأسرته وآله ، ويظهر أن التاريخ يجهل كذلك أسرته ، ولايذكر إلا أنه كان مملوكاً للأمير محيى الدين محمد بن محمد بن سعيد ، ثم أعتقه وأصبح حراً ، غير أنك إذا ذهبت تبحث عن السنة التى ولد فيها شاعرنا بله الشهر واليوم ، فانك غير مهتد الى شيء ، اللهم إلا أنه نشأ في عصر الدولة الأيوبية في منتصف القرن السابع الهجرى ، نستنبط ذلك استنباطاً من قصائده التى مدح بها بعض سلاطين تلك الدولة ، وإذا أنت سألت التاريخ عن تربيته وتعليمه فانك سوف تجد غموضاً وإبهاماً لاتستبين خلالها إلا ماقد ينم عنه شعره من أنه درس اللغة ، واطلع على كثير من شعر الشعراء السابقين والمعاصرين ، فتثقف به وتأثره ، وعارضه أحياناً كما فعل ذلك مع ابن المعتز وابن النبيه ومسلم بن الوليد والمتنبى — وإلا ماقد يكون قد تثقف به من علوم اللغة العربية على يد ولى نعمته محيى الدين الذى نسب اليه والذى ظل أيدمر حافظاً لنعمته عليه يذكرها ، ويمدح سيده بغرر القصائد والموشحات .

٢

ليس لنا اليوم إلا أن نحدثك عن شعره الذى بين أيدينا ، وقبل أن نصفه لك أو نحدثك عنه حديثاً سهباً ، يحسن بنا أن نخبرك أن ماسوف نتحدث عنه ليس بكل شعره ، بل هو مختار منه أبقته لنا الأيام ، ولسنا ندرى إن كنا سنعثر على كل شعره أو أن الزمن بذلك ضنين ؟

أول مميزات شعر شاعرنا طول نفسه ، فقصائده أغلبها طويلة ، وقد يبلغ بها الطول الى أن تقارب المائتين ، وذلك إن دل فانما يدل على تمكن في اللغة ، واطلاع واسع يهيئه لأن يطيل كما يشاء حتى يوفى مابنفسه ويستوفيه . ثانيها الرقة وجمال الأسلوب مع متانته ، فلست تحس بالتنافر أو نبو الألفاظ أو أن تركيباً قلق في موضعه غير مستقر ، أو أنك تجد عسراً في فهمه ، أو تحتاج الى وقوف طويل حتى تستبين معناه ، فهو سلس سهل ، يسبق معناه الى قلبك قبل أن يسبق لفظه الى سمعك ، وانك لتجد نفسك مسوقاً الى قراءته متى بدأت أول القصيدة لطلاوته وعذوبته ، وهو يذكرنا بالبحترى حينما نجد الألفاظ له منقادة متخيرة ، مع السهولة والعذوبة . ولا يذهبن بك الوهم الى أنه لم يستعمل ألفاظاً غريبة في شعره ، فانه قد استعمل منها طائفة صالحة ، غير أنه كان حكيماً في استخدامها ، حصيفاً في استعمالها ، لا يكثر منها ولا يضعها في غير موضعها . ثالثها استعمال بعض المحسنات البديعية من غير إكثار منها ولاتكلف ، بل إنها تجيء سلسة سهلة ، لاتذهب برواء القصيدة ، ولا تضيع من بهجتها ، ولقد استخدم في شعره التورية والجمع والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، والاقتباس ، فهو يقول :

في جوده السفاح أم في عزمه المنصـــور ، أم في غيه المأمون

ويقول :

قضت لك الشيمتان : العـــدل والكرم
أن تخضع الأمتان العرب والعجم

وشرف الدين والدنيا بدولتك الـ غراء ، والأشرفان العلم والعلم

ويقول :

ملك إذا امتدت يداه الى العدا يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول :

هو الناهب الأرواح والواهب الهلى وبانى العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لايفارقه صب الفـــؤاد به متيمه
يدعو بصوت أستبين به معنى الحنين ، ولست أفهمه
فيميل بى طرباً تمايـــله ويهزنى شوقاً ترنمـــه

يبدى أسى الباكى وزنته   فى نوحه ، والدمع يكتمه
بحر الأسى إنسان مقلته   يجرى فتخضب رجله دمه

ويقول من موشح :

أنت ياموسى رجائى آنسا
نار جـدواه فوافى قابسا
رحت فى حضرة قدس جالسا
فى طوى السؤدد ، فاخلع نعلكا   وادعه يأت بكبرى يوشع

وكان أكثر ماأتى به فى شعره حسن التعليل ، على أن كل المحسنات التى أتى بها قليلة ، فهو غير مغرم بها ، ولاملزم نفسه كغيره السير على منهاجها .

٣

شعر الحيوى يتضوى تحت لواء واحد وفن واحد من فنون الشعر الغنائى ، هو المدح ، فهو الغرض الأول فى شعره ، يقصد إليه قصداً ويلم بغيره عرضاً من غير قصد ، يبدأ به قصيدة المدح أو يختم به الموشح ، وكان ماأتى به عرضاً يدخل فى الوصف أو فى الغزل ، ولنقف وقفات قصيرة لدى كل غرض من تلك الأغراض التى طرقها واصفين ودارسين .

أول ماتلمسه فى شعره المدحى أنه قد خلا من الغزل فى أوله حينما يمدح سلطاناً من سلاطين الدولة الأيوبية ، بينما هو يبدؤه بالغزل عندما يمدح ولى نعمته محيى الدين بن سعيد أوغيره من الوزراء ، فأى شىء تستطيع استنباطه من تلك اللاحظة ؟ وعلى أى شىء تدل ؟ لقد قلبنا الأمر على وجوهه ، ثم خرجنا بنتيجة قد تكون قريبة من الصواب : تلك هى أن هؤلاء السلاطين لم تكن عنايتهم موجهة للغوانى والحب والغرام حتى يأسرهم الحديث عن الحب ويسترعى انتباههم ، وإنما كان كل همهم موجهاً الى الحرب والقتال ، وقهر الأعداء ، ورد العادين من المغيرين على دولتهم ، فقد كانوا كما قال أيدمر فى أحدهم :

متفرغ للمجد ، لاهو من دد   يلهيه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى   يطربنه ، لا البيض مما ولد
والأسمر الخطار يبهج نفسه   ويسرها لا الأسمر المتأود

وإذا كانت عنايتهم متجهة نحو ميادين الحروب فماله يشغل نفسه بشىء لا يملك عليهم نفوسهم ، ولا يأسرها ؟ حقاً لقد كانت لهم مواطن لهو ولذة ، ولكنها لذة العظمة وأبهة الملك

كذلك يسترعى نظرك فى شعره كثرة مدحه لسلاطين هذا العصر بذبهم عن حياض الدين وحياطته بسياج من العزة والمهابة فهو يقول للملك الصالح :

ملك يلوذ الدين منه بمعقل   أشب تمنطاه سوره والخندق
فالدين بعد تفرق متجمع   والكفر بعد تجمع متفرق

ويقول له :

فاسلم لدين قد هديت إليه من   لايهتدى ، وجمعت مالا يجمع
وحميت حوزته ، فأصبح وهو فى   أيام دولتك الأعز الأمنع

ويقول للملك الكامل :

فالله يشهد أن دين محمد   بمحمد ، وله الخليقة تشهد

ويقول له :

لولاك كان الدين سرحا ماله   راع ، وزندا ما عليه سوار

وذلك نتيجة طبيعية لهذا العصر الذى صبغ بالصبغة الدينية وكان القتال يدور فيه باسم الدين وباسم الدفاع عن الدين ، فليكن الشعر كذلك مصبوغاً بهذه الصبغة ، مثنياً على السلاطين لأنهم خدموا الدين وقاموا على صيانته .

تلمس فى شعره المدحى كذلك قوة ملوك مصر فى هذا العصر حتى لكثيراً مايسميهم ملوك الملوك وكثيراً ما تسمعه يقول لهم :

من ألقت الدنيا مقالد أمرها   بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيك عنه أنه   ملك الملوك الحق حين يحقق

إلى أن قال :

فجلست حيث جلست منه بزينه   شرفا فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه   فتراه ، وهو لغير فكر يطرق
هيهات حزت مدى الملوك إلى مدى   رجم الظنون اليه لايتطرق

ويقول :

منح رآك الله أهلا أن تقلـ   ـدها فقلدك الذى تتقلد
ذكرت مفاخرها الملوك وخيرما   ذكرته منها أنها لك أعبد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة   فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فاذا هم نظروا إليك فأعين   حسرى ، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له الـ   ـتيجان فى قمم الزمان وتعقد

وإذا أنت علمت أن ملوك مصر فى ذلك الحين كانوا حقاً زعماء الملوك فى العالم ، وكانوا أكبر رؤوس تطأطىء لها هام الملوك ، وتنخلع من هولها قلوب الأعداء ؛ وإذا أنت علمت أن مصر فى تلك الأزمان كانت أكبر مملكة فى الشرق والغرب ، وأقوى دولة يقصدها الأوربيون بجموعهم ، فلا ينالون منها إلا مناله

الوعل من الصخرة ، وإذا أنت علمت أن الجيش المصرى هو الذى حمى الشرق وحفظه من الأجنبى الذى يريد أن يتحكم فيه وإذا أنت علمت أن الاسلام وحرية الأديان كانت تسهر عليهما مصر وملوك مصر ، ويحيطونهما بسياج الحفظ والمناعة ، إذا أنت علمت كل ذلك أيقنت أن هذا الذى مدح به هؤلاء الملوك لم يكن بالكذب ولا المغالى فيه ، وأمامك كتب التاريخ فاقرأها تعد مؤمناً بصدق ماقال فى قوة مصر وملوك مصر .

شعر شاعرنا المدحى يعطيك صورة عن بعض نواحى الحياة المصرية فى ذلك الحين ، فهو يحدثك عن الغزاع الذى كان قائماً بين المصريين والصليبيين حينما وجه هؤلاء تيار حروبهم إلى مصر نفسها قلب العالم الاسلامى ؛ فأغاروا على دمياط ، ولكنهم فشلوا أيما فشل ، واستطاع المصريون أن يخلصوا دمياط من حوزتهم ويرجعوهم بخفى حنين ، وهو يحدثك عن هذه الجموع الكثيرة التى كانت أوربا تمد بها الجيش المحارب لدمياط ، والذى يريد الغلبة عليها ، قال أيدمر :

أيام قال الشرك بغياً للهدى ... دمياط لى ، ولك الفداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة ... والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسيل إلا أنه لا ينقضى ... والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الأسلام وحدك موقناً ... أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما ... بالنصر تشقى من تشاء وتسعد

فرددت شخص الشرك وهو مسربل خزياً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم : فكلم ... وبجدل ، ومشرد ، ومصفد

كما يحدثك عن هذا الغزاع الذى كان قائماً حول جلق (دمشق) أتبقى فى حوزة المصريين ، أم يحكمها غير المصريين ، وكانت الغلبة غالباً فى جانب المصريين ، وهو حين يحدثك عن هذا الفتح يشعرك بما فى نفوس المصريين من حب لأن تبقى دمشق ضمن حدود مملكتهم ، وأن يخفق عليها علم الامبراطورية المصرية . حتى إنه حينما كان يأتى البشير بفتح دمشق يزين المصريون دورهم ، ويرفعون الأعلام على شرف الجدران تخفق كما تخفق قلوبهم بالفرح والسرور ، واستمع اليه يقول :

قد قلت إذ جاء بالفتح البشير به ... الله أكبر هذا غاية الأمل
ترنح الدهر ، واهتزت معاطفه ... وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها ... وازينت ، فهى فى حلى وفى حلل
مسرة فى قلوب الناس قد ظهرت ... حتى على شرف الجدران والقلل . الخ

وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة ، وسوف تصبح فى دعة وأمن مادامت ضمن المملكة المصرية :

فليهن جلق أنها قد أصبحت ... فى مستقر الملك ، لاتتحول
وأنا الضمين بأن سيبلى جلقاً ... عما مضى من غمرها ما يقبل

ونختم حديثنا عن مدحه بتلك القطعة الصغيرة لتكون نموذجا لبقية مدحه ، قال يمدح الملك الكامل :

الله جارك ، والورى أنصار ... فانهض ، ونل بهما الذى تختار
خضعت لهيبتك الأقارب والعدا ... وجرت بوفق مرادك الأقدار
ملك إذا امتدت يداه الى الظبا ... يوم الوغى تتقاصر الأعمار
من وجهه قمر ينير ، وسخطه ... قدر يسير ، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطايرت فى موطن ... نزلت عليه سكينة ووقار
ملك له من بأسه وغناه ... حصن أشم ، وجحفل جرار
ملك يميل الى المكارم لا الدمى ... وتهزه العلياء لا الأوتار
ملك تهيم به بنات قلوبنا ... حباً ، وتعشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحا ماله ... راع ، وزنداً ما عليه سوار

فأنت تحس حقاً بأنك تقرأ أسلوب البحترى وتحس جماله وعذوبته، مدحه لغير الملوك يبدأ بالغزل ، وهو وان لم يكن مقصوداً لذاته لا بأس بجماله وعذوبته ، حتى لتتمنى حين تقرأ غزله أن لو كانت القصيدة كلها غزلية ، وإن كنا نؤكد أنه فى غزله مقلد آخذ معانى من سبقه من الشعراء ، واستمع اليه يقول من موشح :

قال لى العاذل لما نظرا
من غدا قلبى به مشتهرا :
أكذا تعشق ؟ ماذا بشرا ؟
حاش لله ؟ أراه ملكاً ... مثل ذا فاعشق ، والا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر تغيب وبحكا ... ما احتياج الناس للبدر معى ؟ !

فأنت لا شك تحس بالعذوبة فى ألفاظه وان كان الكثير من معانيه مقتبساً ، وكم كان بودنا لو أطال الحديث فى الغزل أو لو قصد اليه قصداً وظل يروى لنا عاطفتنا الظامئة الى غزله .

(البقية فى العدد القادم) احمد احمد بدوى